مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 13، عدد رقم: 03، سبتمبر 2024، صص: 425 - 438
تاريخ الاستلام(2024/04/03)تاريخ القبول (2024/09/28)تاريخ النشر (2024/09/30)

الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف مقدّمات في الكتابة معارك من أجل نموذج إسلامي

Sheikh Abdul Rahman bin Al-Hafaf: Introductions to Writing,Battles for an Islamic Model

ساعد بلهادي[1]
[1]المدرسة العليا للأساتذة –سطيف- مسعود زغار (الجزائر) s.belhadi@ens-setif.dz

ملخص:
يبدو أن استنطاق مدونة الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف ليس بالأمر الهين، كون حضوره المعرفي إشكاليّ للغاية؛ فرؤيته الكونية تكتسب رصانتها من التبحر في الأطر الثلاث: المعرفي، التاريخي، واللغوي، وتأتي جاذبية صياغة الذات تصديا للرؤية الاستشراقية، ليتحمل حيالها الشيخ بن الحفاف المسؤولية الملقاة على عاتقه اتجاه الكتابة؛ التي تنفتح على متغير الدين، واللغة، والحضارة، وهذا لا يثني إرادة الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف من الانفتاح على لغة الآخر للبحث عن شرعية للمقاومة عبر الكتابة من داخلها، في سبيل التصدي للتفكير الايديولوجي ضد الإسلام.

كلمات مفتاحية: الكتابة، المقاومة، اللغة، النموذج، الاستشراق، الحضارة.

Summary:
It seems that delving into the writings of Sheikh Abdul Rahman Bin Al-Haffaf is not an easy task, as his intellectual presence is highly problematic. His worldview gains its depth from an immersion in three frameworks: cognitive, historical, and linguistic. The appeal of self-formulation serves as a response to Orientalist perspectives, with Sheikh Bin Al-Haffaf bearing the responsibility placed upon him regarding writing, which opens up to the variables of religion, language, and civilization. This does not deter Sheikh Abdul Rahman Bin Al-Haffaf from engaging with the language of the other in search of legitimacy for resistance through writing from within, in order to confront ideological thinking against Islam.
Keywords: writing, resistance, language, model, Orientalism, civilization

المؤلف المرسل: ساعد بلهادي، **الإيميل:** s.belhadi@ens-setif.dz

1. مقدمة :

لأجل بيان كلية مشروع الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف في الكتابة وأهمّيته الرّاهنة، ينبغي العودة إلى ما يكتبه في حقبة مكبرة للغاية تصدّيا للخطاب الاستشراقي/الاستعماري، الباعث على الريبة بشأن نظرته إلى الشرق، تاريخا ودينا ولغة، ولا مندوحة من أن هذه الخلايا الفكرية التي تعرضت لأكثر من محاولة لتعرية الثقافة من أصالتها، ولعرقلة كل مجهود يصبو إلى صحوة الضمير الإسلامي، دفعت الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف لأن يستقلّ بمشروع يشكل ثورة مضادّة، وهو ما كتبه باللغة الفرنسية منافحا عن الحضارة الاسلاميةمتجها صوب التاريخ وعلوم الدين، واللغويات والمعرفة الاسلامية:

_ Les Source de la civilisation univeselle, alger,Imp. Générale , 1955.

_ Introduction A L'Etude De L'Islam, Thala Editions , 2005.

_ Histoire de l’alphabet depui les origines jusqu’à no jours, Alger, Imp. Générale, 1950 [1]

فهل يمكن فهمهذا المنجز التاريخي مع ما يستغرقه من مستويات فكرية كحتمية ثقافية؟

كيف يمكن استنطاق مكنونات هذا المفكر الإسلامي في إطار صياغته لنموذج الذات الإسلامية؟

ما الدور الفاعل الذي يضفيه مفكر من القرن الماضي على الأفق الحضاري الراهن؟

سيجد القارئ لهذه الورقة كيف يتوارى نمط الدفاع المباشر عن الدين واللغة والحضارة، التي يوحدها في خطاب بن الحفاف، الطريقة التي ساقها بانتهاج درب المقدمات، لكن مقدمة لأيّ شيء؟ سيتضح في النهاية دون شك أن دور المقدمة بقدر ما يميط اللثام عن الوجه العام للإشكال بقدر ما يستفز القارئ لأجل الإصغاء ومن ثم جاءت الكتابة كمسوغ لتقديم ما يمكن أن تنفتح عليه كل هذه الظواهر أعلاه ووجه التأمل فيها، حول تاريخها وراهنها، ومآلها، لذلك ستبقى الخطوط العريضة تنخل المدخل الذي وضعناه للولوج إلى فكر لم يطرق بعد، استجابة لداعي القراءة المنطوية على :

أولا: الردّ بالكتابة في سبيل النموذج

ثانيا: التأثيل اللغوي: تاريخ الابجدية /مستقبل العربية

ثالثا_ إعادة انتاج الذات: كونية الاسلام

لا شك اننا إذن بصدد مشروع مترامي الأطراف، لا تكاد تحصره إلا الكتابة، لذلك أردنا والحال هذه تغطية الجانب الذي نود حياله تفقد فكر الرجل ونفتقد فيه للمراجع، من خلال وضع معجم أو موسوعة نطلق عليه بـ فلك المقدمات ومدارها، وهو انعكاس صريح لتلك المعركة

الفكرية التي تدخل الكتابة في مخاض عسير لوضع المفاهيم، لا يقلّ عنه حدة ذاك الذي مرّت به معظم الأطروحات المقدمة في مواجهة الاستشراقL'orientalisme والعدوان الغربي عموما على تاريخ الحضارة الإسلامية ومستقبلها، لأجل إزالة التشوّهات عن: اللغة العربية بوصفها هوية إسلامية، وعن التاريخ الإسلامي بما يرزح خلفه من قيم وظواهر.

وتتسنى لنا الفرصة لعرض الأفق الكلي لمقدمات الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف، فيما يأتي:

1_ قد لا يختلف اثنان من كون الكتابة في هذا حقل المقاومة والردّ على الاستشراق لهو أمر متقدم عن أوانه، لاسيما وإن أدركنا أن مستوى هذا الردّ سينضوي على متغير بديع، وهو الناشئ عن الردّ على الآخر بلغته؛ ارغاما له على الاصغاء.

2_ معارك الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف على جبهتين يضع فيها المسلم أمام مسؤولية الرد على المشككين، في التأسيس لكل ما هو إسلامي وإعطاءه الصورة الحضارية الحقة، لا التعسفية المشوهة، ومعركة أخرى تنطوي على بعث الروح الإسلامية؛ انطلاقا من الذات واللغة وفكرة الأصل.

3_ تسليط الضوء على المشهد الإسلامي الذي ينقله عبر التاريخ في لحظته الأولى لحظة التشكل، من ثم نقل صور التاريخ والمعرفة الاسلامية بغية إظهار النموذج الإسلامي .

أولا: الردّ بالكتابة في سبيل النموذج

تبدأ أصالة المعرفة الإسلامية من تلك النقطة التي تشكل جاذبية تاريخية للدارس في العلوم الكلاسيكية، وجوهر انبعاث ذلك الدور الذي لعبته هذه المعرفة من خلال التأثير المباشر في الثقافات الأخرى، ولا نكاد نعثر على اسم من العلماء المسلمين في القرون الوسطى إلا وتوشحت النهضة الأوربية بنتاجهم الفكري/العملي، ولا مندوحة من عودة الشيخ بن الحفاف لروجر بيكون BaconRoger (1292م)، وشهادته التاريخية التي شكلت انعكاسا لتجربة نموذجية للغاية حول جهود أجيال من الفاعلين المسلمين في العقل الكوني، والذي ترك إرثا للدارسين اللاحقين لهم[2].

ويتأتى أن معرفة هذه الظواهر التي شكلت الحدث لدى الغرب الساعي على الدوام إلى إعادة وسم الشرق في ظواهر كأنماط التدين، ومهمات الجهاد التي كانت بطريقة شرعية وجد قانونية، يفرضها الحق في الدفاع عن الانسان والأرض[3]، فقد تعرضت لقراءة جزافية غير حصيفة على مدى عصور من الزمن، نابعة عن عور في الرؤية للآخر، واللهث خلف الإدانة، وهذا لطالما تولد عن مركزية الغرب، فكان مدعاة لدفع الشيخ بن الحفاف إلى دراسة الأديان، أو قل علم الأديان المقارن.

ثم يقف في كتابه مقدمة من أجل الإسلام على قضية تعدد زوجات النبي صل الله عليه وسلم، والحكمة من ذلك، وهو إحدى القضايا التي لطالما اتخذها الغرب مطية لركوب موجة الانتقاد، هذا إذا أدركنا أن هذا الانكار من قبل بعض المثقفين الغربيين هو حسب الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف نظر شائه متحيز لتاريخ الأديان، حيث إن الدور الفاعل لهنّ في نقل الرسالة ليس بالأمر الهيّن (4). بيد أن صاحب الكتاب لم يتوقف عند هذا الحد؛ بل أحال إلى تسويغ مهم للغاية بشأن أمهات المسلمين فقال:" الدور يناط بهن في نقل الوديعة إلى الأجيال القادمة"(5)، هذا وإن الأمانة التي كانت تقع على عاتق كلّ منهنّ تتوارى حيالها كل الرغبات الإنسانية، هي تلك الأمانة الربانية، وتوجيه الأمة إلى القيم المثالية، بما يتخلل ذلك من أخلاق سامية لأجل الأجيال القادمة.

كما لا يمكن أن نتناسى ذلك الجانب المبدع من الحضارة الإسلامية –المذكور أعلاه- الذي ترك أثره في الثقافة الأوروبية، وهنا بالضبط يستشهد الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف مبرزا ألمعية الأدباء العرب، ويحيل إلى دراسة قام بها محمد بن شنب عام (1919) مشيدا بأبي العلاء المعري كأحد النجوم الذين استلهمت منهم القرون الوسطى الأوروبية، وهو ما يعكس أصالة هذا الأدب، وأن أصالته هذه نابعة من صميم الثقافة الإسلامية، ولم يكن قبل ستة مئة سنة وجود دانتي ألغييريDante Alighieri الذي تأثر به العالم، إلا مرتهنا بـ "رسالة الغفران"(6).

ولا مندوحة من أن الخطاب الاستشراقي الذي كانت مدججا بالانتقادات هو ديدن الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف في كل مرة، ففي الوقت الذي تصاعدت فيه الحملات الأيديولوجية ضد التراث الإسلامي، والمتكلف التفتيش عن الثغرات من قبل الكثير من المثقفين الأوروبيين مطلع القرن العشرين، لاسيما الادانات التاريخية المجحفة في حق انتصار الإسلام، جعل منها ارنست رينان Ernest Renanمحل جدل للتشكيك في شرعية تلك الانتصارات، فلم يلبث أن يكون كتاب " Introduction A L'Etude De L'Islam" سدًّا منيعا أمام تأويلاته المتحيّزة، فلطالما كان اسقاط الكلفة عن العالم الإسلامي من جديد تقع على عاتق الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف الذي ينشد ذاك النموذج الفريد في التاريخ، وعليه كان من اللازم العودة إلى تلك المعركة الحاسمة التي اتخذها ارنست رينان –كغيره من المستشرقين المتطرفين- مطيّة للترويج للفكر المادي، الذي مفاده وصف البعد التاريخي بالأسطوري، وضمّه ضمن خانة المخيال الإسلامي، فقد جاء الردّ هذه المرّة مشحونا بتاريخ الأديان، مفاده :"الكتاب المشككون؛ ولاسيما رينان، لم يفشلوا في الطعن في التدخل السماوي في هذه المعركة باعتباره أسطورة من صنع النبي، إذا كانت هناك أسطورة لكان الكتاب المقدس مليئا بمثل هذه الأساطير"(7)، ولم يتوان نصر الدين ايتيان دينيه Étienne Dinet هو الآخر في محاضرته المشهورة :"أشعة خاصة بنور الإسلام"، أن يعيد النظر في فهم المعجزة، ثم إنه يجد في حكم "ارنست رينان"Ernest Renan ؛ ما هو إلا أحد الأصوات المتحاملة على تاريخ النبوّة،

بل إن نظرته حسب دينيه لم تكن تنطوي إلا على عور في الفهم وقصر في الرؤية لم ينبع إلا عن جحود اتجاه الأديان[8].

سوى أن ايتيان دينيه تبعا للشيخ عبد الرحمن بن الحفاف سيجد ضالته مع الفرنسي كريستيان شرفيسchristiancherfils[9]، الذي لم يلبث أن اعتنق الإسلام، ولا يخفى ادراك ما جناه الاحتكاك الدائم، بين الغرب والعالم الإسلامي، كانت النظرة الاستشراقية هي الوسيط الفاعل بين الحضارتين في الغالب، وكم انطوت على نصوص شديدة العداء والكيد للشرق الإسلامي، وبقدر التطلع الفكري والوعي بقدرة هذا التاريخ الإسلامي بقدر المديونية التي يتحملها المفكر في التاريخ الإسلامي كمديونية المعنى[10]، اتجاه كل المرشدين والعلماء والفاعلين في هذا الأفق الحضاري.

ولطالما كان البحث عن النموذج في حدّ ذاته من بين الأدوار التي عني بها الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف، فنجد عودته في وضع مدخل لمعرفة الإسلام، هي مقدمة للتعرف على النماذج الإنسانية التي حملت رسالته، دون تجاهل القيمة المستمدّة في هذه العودة المنطوية على اختيار النموذج، وها هو مالك بن نبي يؤكد على اختيار النموذج قائلا: "النهضة الإسلامية فهي من النوع التاريخي، وهي تتصل باختبار (النموذج) فكل حضارة تتكون، لها نموذجها ومثلها الذي تجعله نصب عينيها ويمكن أن يكون هذا مستمدّا من الحاضر أو من الماضي أو من كليهما في وقت واحد"[11]، وقد لا يلوح لنا موطن واحد للبرهنة على الآفاق العلمية المتعددة الاختصاصات، والمنطوية على مجهودات العلماء، وهنا بالضبط جعل الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف يستأنس بالفهرسة التي وضعها الحاجي خليفة لمعظم المؤلفين التراثيين مع ذكر اختصاصاتهم[12]، وبعد الدراسة التحليلية التي يقوم بها المفكر لكتاب "كشف الظنون"، يعرج أيضا في إطار المقدمة المعرفية التي يضعها عن الإسلام، إلى العلوم التي أسّست في الحضارة الإسلامية، وكانت منشئ لها، هذا مع الثورة العلمية التي صحبت علم الفلك والرياضيات، وما بلغته أسماء كالبيروني وابن يونس من تطوّر أدهش أوروبا في تلك القرون التي تستنير بالعلوم العربية، التي لم تتوقف على المستوى التنظيري وحسب، فالمراكز العلمية –الفلكية والطبية – شكّلت الأفق الحضاري الحقيقي[13]، ولأجل استكمال المجهود الذي تناط به المعركة الكلية لهذه المقاومة، يأتي المبحث اللغوي ليشغل هو الآخر حيّزا لا بأس به في التأثيل/التأصيل للهوية العربية والإسلامية.

ثانيا: التأثيل اللغوي: تاريخ الابجدية /مستقبل العربية

في الحقيقة سيستدعي هذا الاضطلاع إلى طريقة التأثيل، والنظر في الأبعاد التي ينطوي عليها إزاء الارتباطات والانقطاعات التاريخية، التي يمكن أن تعتري تاريخ اللسان من حين لآخر، ثم

إن هذه التاريخية تضع أوزار المعرفة بتفرد اللغة العربية جانبا وهي تحاول إثبات تكوثر أبجدي يعالج أكثر من لغة، كونه يقترب شيئا فشيئا من التقريب الأكاديمي المعاصر في طريقة التأصيل للتفكير عبر الحفر في التاريخ، عساه يلجم الرؤية المتحاملة، لاسيما تلك المتعلقة بالتنكر لكل ما هو حضاري في الشرق، وهو ما يدفع بن الحفاف ليدون أحد أكبر كتبه قوة وهو: "كتاب تاريخ الأبجدية Histoire de l'alphabet"[14]، منذ العصور الأولى لينضاف إلى مدونته المعرفية.يتأتى للكتابة التاريخية أن توضع في مصب العناية بالقيم الحضارية المنطوية على خصوصية دفع الالتباس، واللبس عن العديد من المفاهيم، وإعادة بعثها في خطاب إحصائي، أو قل إنه يستمد شرعيته من أرقام حقيقية، فغني عن البيان إذن أن يجعل من الحساب مرجعية، لتميط اللثام عبر منهج الإحصاء، وانتهاج آليات لا تخلو من أنثروبولوجيا في دراسة قصة اللغة مع الانسان، لاستكناه أصالة العربية واتباعا كذلك للمقارنة في إعادة قراءة اللسان الإنساني.

وكذلك ما تكبدّه من معارك لأجل اللغة العربية، حيث إن فعل المقاومة اللغوية كان يقتضي استجماع كافة المعطيات التي تحرزها اللغة في موقعها من الثقافة، كما كان شديدا بقدر العدوان وبقدر الإقصاء الذي منيتبه الثقافة واللغة على حد سواء وتتخذ هذه المقاومة اللغوية بعدين إحداهما اتجاه الثقافة الإسلامية والآخر بشأن الهوية الوطنية، وكلا المسلكين يشتركان في قضية اللغة، وهو ما ذهب إليه مصطفى لشرف قائلا أن "الجزائريين أصبحوا من 1830، يشعرون بأنهم فقدوا، بسبب الاستعمار، أمورا لا يمكن الاستغناء عنها، ألا وهي الأرض والحرية، والصحة البدنية، والمؤسسات القومية واللسان القومي"[15]، إن هذا العناد الكولونيالي الذي لم يكن أقل منه في قضية اللغة، يدفع بالمفكر على الدوام إلى السعي خلف الانعتاق اللغوي، لأجل ذلك لم يكن بدعا، أن يكتب الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف في أقانيم الهوية اللغوية التي عليها المدار.

ولطالما حاول بن الحفاف استقصاء المعارف في سبيل اللغة، لأجل ذلك يكون من البديهي أن يمرّ المفكر عبر الفيلولوجيا (فقه اللغة)، بما هو مدفوع إلى الاشتغال على علم اللغة المقارن، مستقصيا إمكانية التوصل إلى أن يتعامل مع الحفر في التاريخ، تلك التي تخوّل له أن يلغي بالضرورة عامل الذاتية وقداستها، وذلك من خلال استبعاد كل ما هو ذاتي وإيديولوجي، لأجل التمكن من الردّ على الرؤية الاستشراقية القاصرة بشأن اللغة العربية.

إن الثورة اللغوية الموعودة يحتفي بها جيل واع يدرك خطورتها، حيث إن "اللغة تعد من خصائص الأمة والمجتمع معا، باعتبار أنها _قيمة من القيم الخصوصية والمحايدة في نفس الوقت_ تحتوي على العنصرين: المعنوي والحسي، بنفس المقدار" [16]، وهذا جانب مهم يجعل من المفكر في هذا الحقل يتفطن إلى أن المستوى الهوياتي للأمة لا يمكن بحال أن يكون على طرف من الفضاء الاجتماعي الذي يتداول اللغة، ومن ثم فهي انعكاس لتجربة وميادين التفكير والعقل الواسعة.

ولا يتوقف الشيخ بن الحفاف وهو يحاول أن يحفر في الأصول والعلاقات التي تكون بين الشعوب، في الانتقال اللغوي، وكيف تصيّر من ثقافة لأخرى، وهو ما يفتح أفقا على الثقافة وأصالتها من جهة التاريخ.

إن الأعمال المبكرة لهذا الدرس التاريخي واللغوي في آن، تصادف وتتزامن مع ما قدمه كذلك محمد توفيق مدني في الحقبة عينها دفاعا عن الهوية ومحمد بن شنب وسي أمحمد بن رحال...إلخ، ولما كانت العناية باللغة آنذاك تحصيل حاصل للتصدي، أو جزء لا يتجزأ من المقاومة لأجل الهوية والحضارة الاسلامية ضد الاحتلال، التي يقف فيها بن الحفاف موقف المؤرخ اللغوي حينا، وموقف المجادل المؤرخ حينا آخر، وتأتي مدونته مشفّعة بأفق منهجي، تقتضي حياله الضرورة لتقديم الحدث التاريخي بتفاصيله الأنثروبولوجية والهوياتية، والحدث اللغوي بمستوياته التاريخية والإحصائية على حد سواء.

إن الاشكال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ أول الأمر هو قراءة مرافعة باللغة الأجنبية عن اللغة العربية، إذ إن البعد الذي تتخذه مدونة بن الحفاف يعكس تجربة مفكر ذو أفق مزدوج، ينفتح بالقدر الذي يقترب فيه شيئا فشيئا من التقريب الأكاديمي المعاصر في طريقة التأصيل.

إن سيرة الشيخ بن الحفاف في تصديه للمناهضين للغة العربية هي في حدّ ذاتها وجه آخر للنموذج الذي أراد خلقه، لاسيما إن تحتم الدفاع عنها بلغة أخرى، لاستغراق إصغاء الآخر لما يكتب، وامتلاك سلطة الخطاب في استيعاب لغته، ويتماشى مع القدرة على الالتفات إلى هناك (الآخر)، دفاعا عن وجود (اللغة) و(الهوية)، ومن ثم تكون عالمية العربية تحصيل حاصل كونها لغة لكل اللغات، لذلك يبدو أن الكتابة بلغة الآخر، قد منح هوية مضاعفة ليعيش أكثر فما معنى أن تدوّن خطابا حجاجيا بلغة أجنبية، هوية تنصهر فيها جميع الهويات، ومقاومة للتنكر في مسكنه (لغته)، لتشكل ثورة مضادة ولغة تستوعب كل الاختلافات وتكون مركزية الآخر الاستعماري، معرضة أيضا لتفكيك مضاعف حيالها.

وإذا كانت الترجمة هي مضايفة للغة الآخر داخل الثقافة، فإن الكتابة بلغة الآخر هي عملية استضافة، أو طلب للإصغاء، فتعوض الضيافة اللغوية إذن، بما هي لذة التوطن في لغة الآخر، وتنصرف من ثم محنة الغريب بين أن يستقبل ذاك الآخر في مغايرته، واختلافه عنه، ليس هذا فقط الذي عليه مدار الكتابة بلغة الآخر، فإذا كانت الترجمة تمثل إما أحد المستويين؛ "تقريب المؤلف من القارئ والقارئ من المؤلف"، فإن الكتابة بلغة الآخر لأجل المعرفة السجالية، ينفتح أكثر على إدانة الآخر وتملك رغبة الإصغاء إليه في الحين ذاته، ويلتمس في الترجمة كظاهرة حساسة وصعبة معنى الضيافة ؛ كونها تجد في الترجمة تجربة منفتحة على شرطها الضروري،

زيادة على ذلك تبدو الضيافة في هذا الظرف متجاوزة المعرفة بالآخر باعتباره غريبا تماما، دون تخطي مرة أخرى تحديد هوية الآخر الغريب بصدد الهوية الأصل، ثم إنها فكرة تتجاوز المعرفة في غضون أجنبية الآخر وغربته الهوياتية واللغوية، وتبقى في المحصلة مسألة الترجمة دوما مسألة الضيافة، فيما تتخذ الكتابة بلغة الآخر دائنية فيها نوع من التوريط، توريط الآخر في خطابه، وفي ادعاءاته، أليس هذا شاهد على القوة التي تملكها خطاب الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف؟ لاسيما وأن مدونته تستغرق الحدث المعرفي واللغوي والحجاجي كلّية.

وحينما نحاول في الوقت نفسه مضايفة أعمال بن الحفاف إلى لغتنا العربية، وهي التي كتب يحاجج عنها بلغة الآخر، تجد القارئ يقف عند الحدّ الذي تكون فيه الترجمة فهما وتأويلا للآخر المزدوج الكائن اللغوي الـ: نحن/ الآخر. في المقابل -إذًا- ستبقى القيمة اللغوية التي للمؤلف أن النص منقول إلى اللغة العربية التي لم يكتب بها الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف نصه هذا، على الرغم من كون مشروعه إعادة لوسم الثقافة من خلال اللغة.

ثالثا_ إعادة انتاج الذات: كونية الاسلام

إن إماطة اللثام عن مشروع الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف الفكري بوصفه يشكل خصوصية ثقافية؛ يقتضي الوعي بعدم العودة إليه فقط بدافع بيوغرافي بحت، هذا مع العلم أنه يشكل أحد الحلقات الكبرى للتفكير في الثقافة الإسلامية، مع ما يقدمه في إعادة انتاج الذات، بوصفها المعركة الحاسمة في سبيل العقيدة الإسلامية(17)،تلك العقيدة التي يخصص لها الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف الفصل الثالث من كتابه، لأجل مناقشة هذه الإشكالية يتعين التوقف عند كل منعطف تلو آخر، بداية بالذات الإسلامية والمخيال الجماعي، حيث يقتضي هذا المحور النزول عند رغبة الفكر الإسلامي المعاصر في التمييز بين التعقيدات الحساسة المتخللة في قراءة الخطاب الكلاسيكي في حدود ما يربطه بالعقل من ناحية، ومن جهة التقاليد الراسخة في المخيال المتفاوتة على حسب الموروث الشرقي من هندية وفارسية وعربية وإفريقية... إلخ.

علاوة على أنها حمولة مخيالية شعبية مترسبة في الذات الإسلامية، وعليه اقتضت الحاجة إلى مراجعتها انطلاقا من هذه التراكمات، التي كانت محلّ نظر الإستشراق، بل ومحلّ إصدار الأحكام، كما تتضح العودة إلى ظواهر: العبودية، المرأة، الجهاد؛ فبخصوص الجهاد بوصفه حتمية لا مفر منها، لاسيما وأنها العلبة السوداء للتاريخ الإسلامي الذي يكشف عن حقيقة مهمة، لما أن كانت ظاهرة الجهاد أكثر حضورا في هذا المخيال بل وأشد حساسية في مراجعة الوعي بالهوية الإسلامية، ففي المعنى العقائدي الحقيقي يتخذ الجهاد سيرورة تزيحه عن الرؤية المشوهة، فمصطلحات الحرب المقدسة موجودة في القرآن، وتقيض لنا فهما جذر يا لكل جهد مبذول في النضال من أجل العدالة والحياة [18].

ولا مندوحة في العناية بأفق الذات؛ حيث تشق السبل في الثقافة الإسلامية مأذونا بصياغتها تحت وطأة التأويلات، لتتحدد ملامح الفكر الكبرى لدى الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف، وما يراهن عليه إزاء مشروعه بخصوص إعادة انتاج الذات، مع العلم أن هذه الممارسة منوطة بتطور العقيدة الإسلامية، وهي العوامل التي تشكل أساس الحضارة الإسلامية وتأثيرها في العالم[19]، وصولا عند هذا المفهوم المعوّل عليه كثيرا، حيث يبدو متغيرا أساسيا في المقاربة، ونخاله نموذجا متكاملا، من حيث البحث عن النموذج الذي يشكل الذات الإسلامية، وإرادة بعثه من جديد، وإنتاج صورته من جديد في المشهد المعاصر.

فلك الذات إذن عند الشيخ ابن الحفاف هو ما يسوغ له إعادة كتابة التاريخ الإسلامي باللغة الأجنبية، وهو ذاك الذي يكون مدفوعا إليه قارئ بن الحفاف وهو يجد جاذبيته المستمرة خلال إعادة كتابة السيرة النبوية، التي هي أحد مسوغات التفكر في كونية الإسلام، ويعطف مالك بن نبي على هذا بالقول: "لكي ندرك التاريخ يحسن بنا اعتماد وجهة النظر الكونية"[20].

ويبدو أن الهم المعرفي الذي أخذه على عاتقه المفكر جعله يبحث في التاريخ عن تفسيرات للكثير من الخلافات الحاصلة بين المثقفين في الساحة الفكرية الإسلامية، ليستقيم مفهوم الذات، في أفق كونية الإسلام نجده لا يتوانى من الرجوع إلى قضية المرأة، بالتعاون مع الفرنسي فيكتور سبيلمان Victorspielmann في مقدمات حول "إصلاح القضاء فيما يتعلق بالمرأة المسلمة"، ويدخل هذا في إطار إعادة بعث صورة المرأة في الاسلام، وإزاحة الخطابات العنصرية [21].

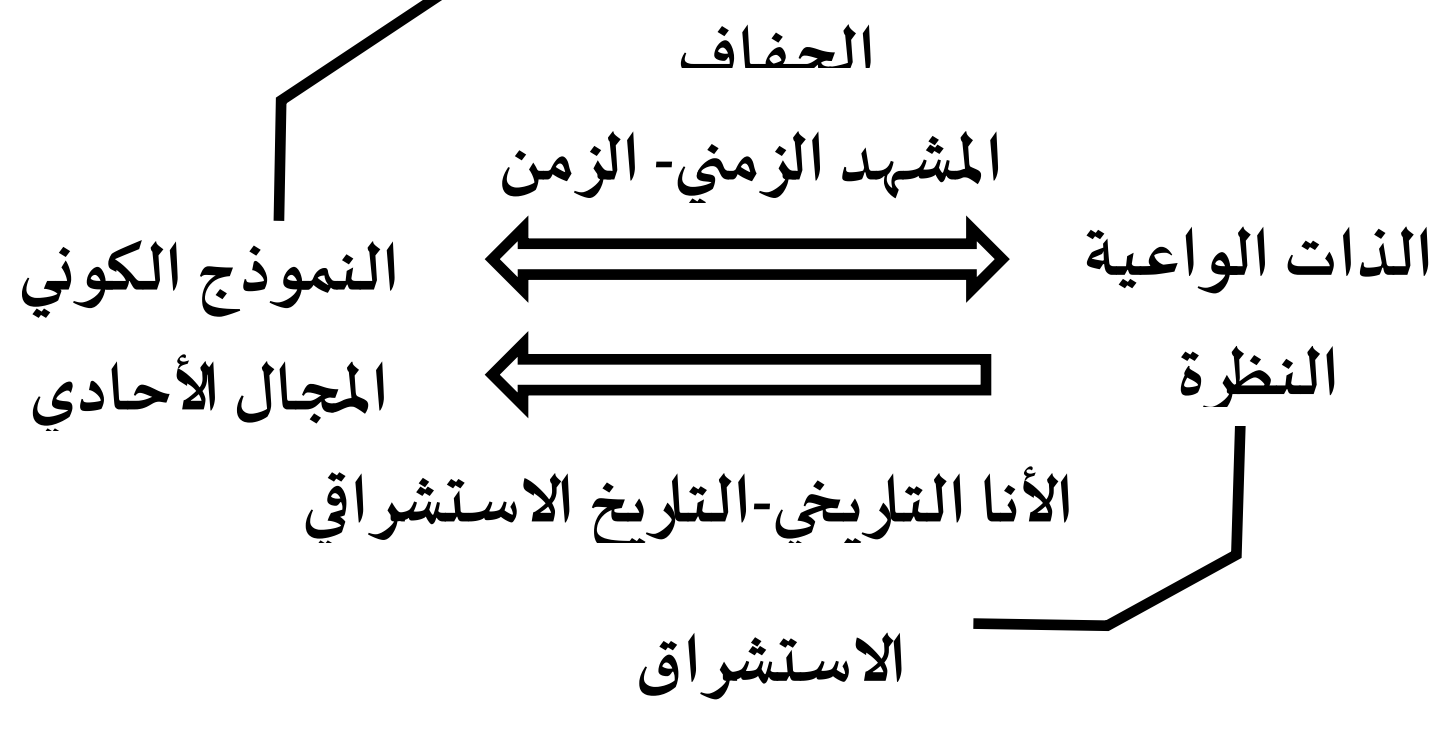
ونحن نتطلع إلى قضية العبودية في أرض الإسلام تطلّعا للغاية الفكرية التي لطالما سعى إليها الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف إزاء تلك المحنة الهواتية التي ظلت تراوده على الدوام، ولم تتوقف لديه عند حد التنظير والاكتفاء بصياغة المفاهيم، بل يحاول أن يجعل ديدنه هو التعجيل في التفتيش عن المكاسب التي من شأنها أن تقيض للدارس الخوض في قلب الوعي وإحداث إبدالات مفاهيمية على مستوى المداخل الكبرى للثقافة العربية، فأن يتحدث الباحث عن العبودية فليس بوسعه أن يستغني على الحديث عن قيم الحرية والإنسانية التي تجلّت في شخص سيدنا النبيّ صل الله عليه وسلم[22].

إن إعادة القراءة للذات الإسلامية يقع على عاتق المنظومة الفكرية المعاصرة اليوم أيضا، كيف يمكن موضعة الذات المفكرة في إشكالات الراهن، والمراهنة كذلك على إعادة تأصيل قضايا الفكر الإسلامي بنظرة شمولية تستغرق التراث بالكلية، ولنقل أن هذه إحدى اليافطات التي تعتري إنتاج الذات، التي تنطوي على صعيدين إثنين: يكون فيهما المستوى الأول ذلك الذي يعنى بمحاولة إنتاج الذات من قبل المفكر فهما وتقديرا منه للإشكالات الكبرى في التراث الإسلامي والأطروحات

الكبرى للهوية، أما على المستوى الآخر تأتي إشكالية إعادة إنتاج الذات اليوم من خلال النظرة الكونية للإسلام.

ولا نكاد نبالغ إذا قلنا أن إعادة انتاج الذات الإسلامية/العربية هو الأفق الذي كانت تناشده جميع مؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف، ثم إن هذه المحاولة في بعث فكرة الذات لا تتسنى إلا عبر مراجعة الدور الذي يناط به للتاريخ والدين واللغة، بوصفها الظواهر التي ترزح خلف أطروحة الهوية، علاوة على أن تلك المحاور الكبرى التي يكتب فيها ما هي إلا احدى رهانات الاستشراق، الذي لم يتوان مطلقا في إصدار الأحكام بخصوص العالم الإسلامي، فكان وضع تصور حوله هو إحدى الأهداف الرامية إلى عزل هذا التاريخ من الوجود الإنساني وبالتالي يكون الدين في زاوية مغلقة، وعليه يستأنس الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف جوليان هكسلي JulianHuxley، صاحب الدعوى الإنسانية المتجاوزة للفكر المتطرف، والداعي لحل المشكلة العرقية، والذي يُعد جهده حسب مالك بن نبي أحد الجهود الفردية الرامية إلى تكريس نزعة جديدة، لعلها تلك التي يختزلها "جوليان هكسلي" في "دراسته العلمية عن الأسس المشتركة بين التفكير الصوفي العالم"[23].

عطفا على هذا؛ كان التصدي الذي أراده الشيخ بن الحفاف ينبع من كونية هذه الثقافة الإسلامية، مبرزا استعدادها الكامل وقدرتها المثالية في أن تسود العالم، وهي القدرة الكامنة في فهم السيرة النبوية، والتي لم يدوّنها –تبعا للحملات الإستشراقية- غير واحد من المفكرين[24]، فمنذ أن تطاول الاستشراق المعاند، تكوّن نمط جديد في الكتابة لدى المفكرين، فمنها ما جاء على سبيل الردّ ومنها ما يأتي خطابا واصفا، وسنجد المسار الذي اتخذته مقدمات الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف في الكتابة، الذي ينضوي وفق أفق الوعي الإسلامي الساعي لإعادة صياغة النموذج، ولعل هذا التمثيل يكون أقرب لوصف هذا البعد:



مخطط يوضح تصور الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف لإعادة صياغة المشهد الإسلامي

إن تشكل هذا الوعي عند الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف لم يكن اعتباطا، بل كان وليد حركة استشرافية نموذجية لتصورات النموذج الكوني، وهو ذاك الذي ينبعث من الذات الواعية، وينتهي إلى الاحتكام إلى كليتها مرورا بالمشهد الزمني الإسلامي، سوى أن المطبّ الغائر الذي يقع فيه الاستشراق هو منطوٍ على مركزية تاريخية، حتى وإن احتكمت إلى العقل، بيد أنها تجزيئية للغاية، تسري داخل الأنا الإرتكاسية، يتّجه دوما –إذا تعلّق الأمر بالزمن والتاريخ الإسلامي- صوب المجال الأحادي.

كما يعطينا الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف قياسا جديرا بالإشادة؛ حينما ضرب مثلا عن علاقة الكتاب بالتاريخ عن كونه لم يكن ليتوقف عند توقف الوحي، بل إنها رسالة استشرافية لما سيأتي من الزمن، وهو تجلى حقيقة بعد وفاة النبي صل الله عليه وسلم، حينها بدت قوة القرآن حقيقة في كونه لن يموت بأي شكل من الأشكال، "لأنه سيظهر في الوقت الحاضر قوته، وفي المقاومة عبر القرون... لاسيما في تجليه الثابت وهو الأخلاق"[25].

في الختام يتراءى لنا أن الحديث عن فكر عبد الرحمن بن الحفاف اللغوي والتاريخي يظل منفتحا على المراجعة والاستنطاق، فالمعارك التي خاضها من أجل اللغة العربية والفكر الإسلامي تجعلنا نقف باحتراز بصدد الإقرار باكتمال المشروع، بغية التفكير في العناية بأطروحة الرجل المعرفية، الساعية إلى بعث هذه القضايا من داخل الثقافة الاسلامية.

كما يعد الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف ظاهرة فكرية تتداعى لمساءلة تعيد النظر والمراجعة في طبيعة الظواهر الإسلامية، وتبدو حينها القراءة كفيلة بتقويض النظرة التجزيئية لهذه الثقافة؛ بيد أن التطلع للتصدي لا يتسنى إلا عبر تخطي عقبة التعصب، وإعطاء الدرس المعرفي نفسا في تبيان أصالة وعالمية اللغة.

لا فكاك من الالتفات إلى أن السيرة المعرفية للشيخ عبد الرحمن بن الحفاف يقيض للباحث معرفة القدرة التي يتملكها الخطاب انطلاقا من الاشكاليات التي عني بها طوال مساره المعرفي، الذي يظل منفتحا على الاستنطاق، وعليه يبدو الإقرار باكتمال المشروع إجهاض له، بغية التفكير المتواصل فيما يدفع الالتباس بشأن الإسلام، انطلاقا من هذا الموروث، وفي الوقت عينه يشكل انعكاسا للتوازنات التي مثلتها كتابات شاهد على المقاومة الفكرية، بإمكانها الامتداد في الأفق المعرفي المعاصر، لتكون جسرا للتفكير في كونية الإسلام.

مراجع البحث وإحالاته:

---

(1) الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف؛ (1881_ 1957)، مفكر جزائري مغمور، عاش في حقبة الاحتلال، كتب باللغة الفرنسية في علوم الدين واللغويات، ينظر:

Jean déjeux. Dictionnaire des auteurs maghrébins de la langue francaise, Editions karthala , p58

ولا تقل عن سيرة أبيه الشيخ علي بن الحفاف المفتي والمناضل مع الأمير عبد القادر الجزائري، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان، ط1، 1998، ج 3، ص 80، وللمفتي علي بن الحفاف مجموعة رسائل يعرضها الأستاذ أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2007، ج3، ص 365، كما جاء أيضا عن الشيخ علي ابن الحفاف أنه " صاحب الفتوى التي حكم فيها بالكفر على علماء مدينة الجزائر الذين لم يهاجروا بعد الاحتلال الفرنسي ويلتحقوا بالجبال" ، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت/لبنان، ط2، 1980، ص121، وله من المؤلفات أيضا: "الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة، منة المتعال في تكميل الاستدلال، بهجة البسط والأنس في شرح الكلمات الخمس"، الأستاذ محمد بسكر، أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة/ الجزائر، ط2، 2015، ص446، وقال عنه الشيخ بيرم في رحلته: "ومن الاخيار الذين اجتمعت بهم ومنحوني فضائل أخلاقهم النحرير العالم الشيخ علي ابن الحفاف المفتي المالكي بقاعدة الجزائر، وهو من تلامذة علامة القطر الافريقي إبراهيم الرياحي.. وكانت وفاة الامام ابن الحفاف يوم السبت صباحا عام (1307هـ)"، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تح: خير الدين شترة، دار كردادة، الجزائر، ط1، 2012، ج2، ص260.

(2)Abderrahmane Ben El-Haffaf ,Introduction A L'Etude De L'Islam, Thala Editions , 2005. p163

(3)Ibid ,. p100

(4)Ibid , P83.

(5)Ibid , P86.

(6)Ibid , P78.

(7)Ibid. , p106.

(8)نصر الدين ايتيان دينيه، أشعة خاصة بنور الإسلام، تر: أحمد بن جدّو قيرش، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص17.

(9)كريستيان تشيرفيلز، نابليون والإسلام، من الوثائق العربية والفرنسية، تر: زين نجاتي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة/مصر، ط1، 2002

(10)مديونية المعنى **Ladettedesens** مصطلح "من اختراع الباحث الفرنسي المعاصر مارسيل غوشيه**MarcelGauchet** وهو يعني به أن تشعر بأنك مدين لشخص ما بشكل مجاني لأنه فتح لك آفاقا

معرفية جديدة أو علمك ما لم تعلم، وهكذا كان الناس يتبعون الأنبياء والمفكرين الكبار لأنهم يشعرون بأنهم مدينون لهم بالمعنى والمعرفة مثلما تشعر أنك مدين لشخص ما لأنه تكرم عليك وأسلفك نقودا. ولولا مديونية المعنى لما اتبع الناس الأنبياء والمصلحين الكبار طوعا وعن طيبة خاطر"، محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي، تر: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت/ لبنان، ط 1، 1997. ص22.

(11)مالك بن نبي، الأعمال الكاملة، فكرة الافريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، تر/ عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق/ سوريا، ط3، 2019، ص829.

(12)Introduction A L'Etude De L'Islam , p153

(13)Ibid, p 134 ,160,163 , **168,** 171

(14)Abderrahmane Ben El-Haffaf ,Histoire de l'alphabet depui les origines jusqu'à no jours, Alger, Imp. Générale, 1950

(15)مصطفى لشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، 2007، ص100.

(16)المرجع نفسه، ص 416.

(17)Introduction A L'Etude De L'Islam . p155

18Ibid . p101

ظاهرة العبودية **l'esclavagedePhénoméne** المكرسة لتجارة العبيد؛ الرق الغالب منهم زنوج، الجواري، ملكة الإيمان، الغلمان، الأسرى، الخدم، والذين استمرت تجارتهم ولم تنقطع إلا بعد وقت متأخر في الكثير من المدن الكبرى الإسلامية كالعراق وأفغانستان، ينظر :

Malekcheble ,L'Esclavage en Terre d'Islam , un taboubiengardé , fayard,2007, P 33, 34.

لمعرفة رأي الغرب لما فيهم المستشرقين في الظواهر (عبودية، تعصب، حريم، جنس، حب) عند العرب ينظر،أيضا: محمد قاسمي وشانتال داغرون، عربي هل قلت عربي؟، أحكام الغرب خول المسلمين والعرب خلال خمسة وعشرون قرنا، ترجمة: فقيهي الصحراوي، افريقيا الشرق، المغرب، ب ط، 1998، ص23،ص85،ص88،ص179، ص195.

(19)Introduction A L'Etude De L'Islam . Annex

هذا المفهوم غير موجود بالصياغة عينها في أطروحة الشيخ عبد الرحمن بن الحفاف، سوى أن القارئ حاول أن يستنطق البعد الفكري العميق للمدونة، وما يتخللها من قيم تنفتح على أفق الذات في أكثر من موضع، وعلى ممارسات هذه الذات كونها مفهوم معقد يأتي بديلا عن العقل، ليشكل معركة أصيلة من أجل العقيدة الإسلامية.

(20) مالك بن نبي، مستقبل الإسلام، تر: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت/لبنان، 1954، ص152

.

(21)Introduction A L'Etude De L'Islam . p179.

يكون المجال الذي تشغله قضية المرأة كغيرها من مشكلات القيم، وطالما صيغت هذه المشكلة في معظم الإشارات المترامية على أطروحة الشيخ بن الحفاف في اطار القانون كما تأتي الإشادة بوجود ميزة خاصة للمرأة في الإسلام،يلتمس التقريب بين الواقع الإسلامي والكتابات الفقهية-القانونية لاسيما تلك المعنية بالحالات الأشد حساسية، كالرقّ والعتق، النكاح والطلاق..

(22)Introduction A L'Etude De L'Islam , p95.

(23) مالك بن نبي، مستقبل الإسلام، تر: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت/لبنان، 1954، ص151.

(24) لعلنا نجد الردود التي جاءت من قبل المستشرقين المنصفين جاءت بقوة خطابها المدون بلغة المتحاملين من جهة، وكذلك جاءت متطلعة ومستشرفة لواقع انساني أفضل، وهو ذاك الذي يسود في النظر إلى التاريخ في بعده المشترك، وبوصفه منطلقا ومرتكزا إنسانيا لرؤية المستقبل، وهو مستقبل تلك التصورات التي تلتمس في المراجعة وإعادة النظر في العصبيات، البحث عن الحقيقة، وبناء على هذا سنجد منظومة من الاستشراق تستقل بذاتها، وبهويتها، لتكتب تاريخا آخر، لا يبتعد عما يحاول أن يقدمه مفكرو الإسلام كالشيخ عبد الرحمن بن الحفاف، ومن أمثلة المستشرقين نذكر: **موريس بوكاي MauriceBucaille**، آن ماري شيمل **Anne MarieSchimmel** ، لورا فاغليري**Lorraine Decléty** ، ايتيان دينيه **Étienne Dinet.**

(25)Introduction A L'Etude De L'Islam , p124.